محكم

سيرة الرسول محمّد في الدراسات الاستشراقية

بين القرون الوسطى والعصور الحديثة

لسعد العيّاري
باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

ملخص البحث:

لا شك أن البحث في مسألة السيرة المحمدية في الدراسات الاستشراقية، يظل متفكرا في انسياقه داخل فضاء تاريخي وحضاري مخصوص، يتوسل بمجموعة من المنطلقات العقلية والمقاصد الفكرية، أسهمت في اقتراح صورة للنبي محمد تراوحت صفاته بين نفي صفة النبوة عنه وتنزيله منزلة البشر بكل تناقضاتهم وأخطائهم المادية والمعنوية بأسلوب محكوم بالتهكم والسخرية من أفعاله وأقوله، وبين صورة قائمة على معنى الاعتدال في التاريخ والرد على الانتقادات الموجهة له بأسلوب علمي يرتقي إلى مصاف الموضوعية، ولا يسقط في الرؤية التمجيدية المطلقة التي استقرت في الضمير العربي الإسلامي ورافقت اهتمام العرب بالسيرة النبوية لنبي الإسلام محمد.

وقد حاولنا في هذا البحث عرض المسالك المختلفة التي انتهجتها الدراسات الاستشراقية للقرون الوسطى والعصور الحديثة في سعيها إلى رسم ملامح الشخصية المحمدية في سيرتها الاجتماعية والسياسية والدينية، وأثر هذه الصورة في تحديد فهم معين للإسلام. ولقد مكننا البحث من استخلاص نتائج مهمة، تسمح بإعادة التفكير ومراجعة النظر في بعض المسلمات المتعلقة بمضامين السيرة النبوية، والتي ظن أنها في مأمن من كل مراجعة.

مقدمة:

تعتبر دراسة السيرة النبويّة لمحمد رسول الإسلام بكل مراحلها ومكوّناتها من أهمّ المتطلبات المنهجية والمعرفية لدراسة ثقافة المجتمع الإنساني الإسلامي في تمثلها للعالم ولبقية الأديان السماوية الأخرى، حيث تمثّل شخصية **النبي محمّد** النموذج التكويني الكاشف للشخصية الجماعية في الدين الإسلامي.. فالسيرة المحمدية تعكس من هذه الوجهة أنماط الاستجابات المختلفة لتحديات الصراع مع الآخر غير المسلم لاستقطابه واستمالة عقله وقلبه إلى الإسلام، كما تعكس السيرة المحمدية أنماط التمثلات والاعتقادات والمعارف التي تحدّد طبيعة العلاقة المثالية بين المسلم والذات الإلهية، وبينه وبين المسلم الآخر، كما تساعد على ضبط وتحليل الفعل الإلهي المكتنز في الإنسان النبي، ونعني بذلك المعجزة أو الخارقة التي يأتي بها النبي للتدليل على صدقية نبوّته...، وبالتالي يظلّ النظر في سيرة محمّد متفكرا في انسياقه بانبثاقه من تلوين ديني وأسطوري وفكري ورمزي، قد يبدو متناقضا أو متوحّدا داخل سياقات أخرى بسبب من التقاطعات الدينية والتقاطعات الثقافية داخل المجتمعات، والتي تسهم في تأسيس مقاربة شمولية لكل أنماط التفاعل من حيث سلطة الدين، وأيضا من جهة سلطة الثقافة يعني جدلا الانتباه إلى التجاذب الحاصل بين المركز والأطراف في سياق رؤية علمية ترى أن هذا التجاذب أو التفاعل، إنما هو ظاهرة أنثروبولوجية في كل المجتمعات والأديان، تشترط عدم إغفال الصيرورة التاريخية كلما اقتضى الأمر متابعة هذه الظاهرة ومعالجتها علميا وعقليا.[1] وبسبب من ذلك لاقت السيرة المحمدية اهتماما كبيرا، سواء من علماء المسلمين أو من غيرهم، حيث جاءت محمّلة بأنظمة معرفية ودينية محكومة بمنظومة من البديهيات والمعايير والقيم والرموز أو بعبارة محمد عابد الجابري مجال تسود فيه حالة الإيمان والاعتقاد.[2] وإذا كانت الظاهرة الدينية مستعصية دائما منغلقة عن كل ما يطوقها بالحصر والتحديد والتصنيف، فإن هذا ينطبق على كل تلك الرموز الدينية، وهذا ما يفسّر أن بعض أنماط المقدس في الذهنية المسلمة قد يصبح مدنسا عند ذهنيات أخرى أو العكس.

فكيف تبدّت صورة **النبي محمد** في الدراسات الاستشراقية، وهل حافظت على ذات الملامح في القرون الوسطى كما في العصور الحديثة أم أنّ هذه الصورة قد شهدت مجموعة من التغييرات الطارئة بفعل الزمن وبفعل سقوط الحواجز؟ وهل يمكن أن نظفر بخطاب استشراقي في مجال كتابة السيرة يتضمّن هامشا كبيرا من الموضوعية في مستوى اللغة والدلالات الحيادية؟

وقبل الخوض في هذه المسائل، كان لابد من الوقوف، ولو قليلا على مدلول السيرة ونشأتها.

1- Penser l’histoire de Maghreb ; p, p ; 48-50.Voir Mohamed Arakoun,

2- انظر: محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، ص 16

1- في مدلول السيرة ونشأتها:

إنّ أقدم استعمال لكلمة "سيرة"، نجده في مفتتح سيرة ابن هشام، حيث يقول: "قال أبو محمّد الملك أبو هشام النحوي هذا الكتاب سيرة رسول الله"[3]. من هذا التحديد نقف عند ضبط لمدلول السيرة بما يعنيه هذا الاستعمال من مطابقة الجنس الأدبي التاريخي الذي يعنى أساسا بسرد وقائع حياة الرسول، وهي تقابل كلمة بيوغرافي. كما نظفر باستعمال هذا المصطلح لتّأدية معنى سرد حياة الرسول محمد لدى **الواقدي**، نجدها عند **ابن سعد** في طبقاته " هؤلاء أعلم بالسيرة والمغازي من غيرهم"[4]. ونجد في فهرست **ابن النديم**، إشارة دالة على أن كلمة سيرة تتخذ هذا المعنى الواسع الذي يعنيه مفهوم "السيرة" في الدراسات الحديثة، على غرار سيرة معاوية وبني أمية لعوانة الكلبي (147 هـ).

ويرى بعض الدارسين أن السيرة كانت مرتبطة في أصل تعريفها منذ البداية بسرد تاريخ الرسول الحربي والعسكري أو الغزوات التي خاضها وقام بها لنشر دعوته. ويذكر **حسين نصار** في تقديمه لكتاب **جوزيف هروفيش** أن دواعي ترجمة كلمة بيوغرافي بكلمة مغازي عوض كلمة سيرة يعود هذا الاختيار إلى الاقتداء بالمؤلف نفسه الذي آثر كلمة مغازي، واختار هذا اللفظ وكتبه باللاتينية، وقد أشار إلى أن كلمة مغازي كانت تعني في حدود استعمالاتها الغزوات والحروب التي شارك فيها رسول الإسلام، غير أنّ هذا المفهوم قد تدرّج في الزمان واتسعت دائرة استعمالاته، ليشمل حياة الرسول محمد بمختلف مراحلها وتفاصيلها.[5]

والمتتبع لتاريخية نشأة هذا الجنس التعبيري، يلحظ أن الأحداث المنسوبة إلى نبيّ الإسلام والمدرجة في الأخبار كان الغرض منها تشريعيا فقهيا أكثر منه توثيقا أو تأريخا، كما اهتم القصّاص بداية من القرن الأول للهجرة بهذا النوع من التأليف، فأسرفوا في الرواية وبالغوا في نشرها. وقد عمدوا إلى إكساء رواياتهم عن حياة رسول الإسلام بطابع خرافي أسطوري شأن اهتمامهم بقصص الأبطال والأنبياء قبل الإسلام.

وبداية من القرن الثاني، بدأ تدوين السيرة النبوية يتخذ شكلا معياريا بسبب من التحول الذي شهدته شخصية محمد في الضمير العربي الإسلامي، وتحديدا في مواجهة صورتي عيسى وموسى خلال الاتصال بالمسيحية واليهودية، ما أكسب روايات السيرة طابع الخرافة والغلوّ الذي حفّ بشخص الرسول من جهة الارتقاء بهذه الصورة إلى مصاف الألوهية والقدرة على تجسيد الخوارق الالهية، وقد نظفر داخل الحضارة

[3]- انظر ابن هشام؛ **السيرة النبوية**، دار إحداث التراث.
[4]- انظر ابن سعد؛ **الطبقات**.
[5]- انظر جوزيف هورفيدس؛ **المغازي الأولى**.

الإسلامية بتفسيرات حول إحلال الصورة الأسطورية المثالية لشخصية محمد محل الصورة التاريخية الطبيعية، حيث ذهب **محمد المختار العبيدي** إلى القول إنّ السيرة نشأت في القرن الأول والثاني مقترنة أساسا بالحديث عن المغازي، ذلك " أن كلف مسلمي القرن الأول والثاني برواية المغازي، ثم بتدوينها ناتج في نظرنا عن الانهزام في واقعة أحد لا عن انتصار الرسول في بدر، إذ بقدر ما كان الانتصار في نظر المسلمين وقتئذ أمرا طبيعيا ومنتظرا كانت الهزيمة إذا ما مني بها الرسول أمرا غريبا كأشدّ ما تكون الغرابة من الصعب جدّا، إن لم يكن من المستحيل تصوّرها"[6].

هكذا إذن، تشكلت خصوصية هذا الجنس التعبيري الذي تأسّس في البداية تجسيدا للقيمة الأخلاقية لنبي الإسلام محمد وإبرازا لقيمة الإسلام بالنسبة للمسلمين على غرار ما نظفر به عند **ابن هشام والواقدي والطبري**. كما لم تكن استطراداتهم إلا بقصد إبراز الخصائص الكونية في السيرة المحمدية وفي الرسالة الإسلامية بصفة عامة، وهو ما حدا بالمستشرقين إلى إعادة النظر في قيمة الأخبار التي حملتها السيرة ومدى صدقيتها، وقد أكّد **جولد تسهير** أنّ الأحداث والأخبار الواردة في السيرة ليست إلا نتيجة افتراضية لتفسير ذاتي وضيّق لآية وردت في القرآن استنبط منها الفقهاء وعلماء الإسلام أحكاما معيارية، مستعينين في ذلك بفرضيات فقهية، حيث تخلو كل الحوادث المروية في السيرة من سند الرواية التاريخية.[7]

من هذه الوجهة نطرح بعض الأسئلة على وجه الإضاءة:

أولا: كيف تعامل المستشرقون قديما وحديثا مع مادة السيرة المحمدية؟ هل حافظوا على هذا الموروث بالتفسير والتفصيل أم أعادوا صياغته ومعالجة نصوصها بأدوات نقدية ثاقبة ودقيقة، فأبانوا عن مواطن الغلوّ والمبالغة وكشفوا عن الجوانب الخرافية في الأقوال كما في الأفعال المنسوبة إلى رسول الإسلام؟.

ثانيا: كيف تمثل المستشرقون صورة النبي محمّد من خلال ما أوردوه من أخبار وروايات، وهل كانت هذه الصورة الممثلة خالية من خلفيات دينية وفكرية أم هي صورة تظل أبدا محكومة بآراء المستشرقين وأفكارهم؟

ثالثا: هل استفاد الفكر العربي الإسلامي من بعض الدراسات الاستشراقية قديمها وحديثها في تسجيلهم لمادة السيرة المحمدية، أم أنهم اتخذوا موقفا موحّدا وصارما إزاء هذا النوع من الدراسات قائما على الرفض والدحض؟

[6]- للتوسع؛ أنظر محمد المختار العبيدي؛ حوليات الجامعة التونسية؛ علاقة المغازي بالسير؛ عدد 17؛ 1979

[7]- للتوسع؛ انظر جولد تسهير؛ **العقيدة والشريعة في الاسلام**؛ ترجمة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وحسن عبد القادر؛ دار الكتاب المصري القاهرة؛ 1946



2- صورة الرسول محمد في الدراسات الاستشراقية:

أ) في دراسات القرون الوسطى:

لقد اهتم العالم الغربي بمادة السيرة النبوية بأشكال مختلفة ومتباينة، ذلك أن صورة النبيّ محمد قد لاقت في الغرب اهتماما بالغا، ولعلّ من أبرز الأسباب والدواعي التي دفعت العالم الغربي إلى الانتباه إلى مادة السيرة النبوية يمكن أن نذكر في هذا المجال ما ذهب إليه حسين أمين إلى أنّ الاهتمام بصورة محمد في الغرب مردّه إلى رغبتهم في الاطلاع على جملة الغزوات الإسلامية التي خاضها المسلمون مع النبي محمد لنشر دعوته. ويرى ماكسيم رودانسون أنّ صورة الإسلام لا يمكن تفسير بروزها بسبب من الغزوات الإسلامية، ولا كنتيجة للحروب الصليبية بقدر ما برزت جرّاء الوحدة الفكرية التي تكونت في العالم المسيحي، ما مكّن من رؤية واضحة المعالم لصورة الإسلام ورسوله[8]. فكيف كان الغرب يصوّر محمد؟

لقد كان النبي محمد في مؤلفات القرون الوسطى، يصوّر على أنه رجل كنيسة مرتدّ (كاردينال) وما محمد إلا صنم الإسلام الرئيس، وما الإسلام في أوروبا القرون الوسطى إلا دين وثني قام على حدّ السيف والعنف من جهة أن صاحبه احتاج في نشره لرسالته إلى استعمال قوّة السيف والسماح لأتباعه بإشباع رغباتهم العدوانية والجنسية في هذا العالم. كما لم تخرج صورة محمد في دراسات مستشرقي القرون الوسطى عن دائرة تصويره في شكل ساحر ودموي، حيث قام بهدم الكنيسة في إفريقيا وفي الشرق باستعماله السحر والخديعة، وهو بالإضافة إلى ذلك رجل شهواني وطموح لم يبتدع الإسلام إلا كمطيّة، لتحقيق أهدافه السياسية ورغباته الجنسية.

إنّ مختلف هذه الإبانات والملامح التي حدّدت صورة النبي محمد، تبدو مجتمعة معبرة عن موقف "دانتي" الذي عمد إلى وضع محمد في الدرك الأخير من الجحيم في فصل أهمله المترجم العربي حفظا لمشاعر القراء المسلمين. وخلافا لهذه الصورة، نقف على منهج مختلف قارب صورة نبي الإسلام بأسلوب علمي موضوعي، وأسهم في نقل المعرفة بالإسلام إلى أوروبا التي تضاعف عندها الاهتمام بالإسلام تدريجيا، ويعزى ذلك إلى دخول الأتراك إلى تاريخ الإسلام، ما مكنّهم بداية من القرن الخامس عشر من السيطرة على أقوى إمبراطورية في أوروبا، وقد عدّ الرهبان بطرس من الرواد الذين اتبعوا منهجا أكثر واقعية ورصانة في الحديث عن الإسلام وعن نبيّه، غير أنّ السمة التي هيمنت على منهج أوروبا القرون الوسطى في تصوير محمد والإسلام، ظلّ يسودها التهجين والنقد العسير، ما يطرح عديد التساؤلات حول هذه الاعتقادات الجازمة بضرورة التمرد على صورة نبي الإسلام محمد، وإن ظلت مرحلة العصور الوسطى إليها الرجعى دائما في الذهنية الفكرية العربية

---

[8]- Voir ; Maxim Robenson ; Le vocaunation de L'Islam ; p 25

الإسلامية، حيث يقول سلامه موسى: "إن أسوأ ما أخشاه أن ننتصر على المستعمرين ونطردهم وأن ننتصر على المستغلين، ونخضعهم ثم نعجز عن أن نهزم القرون الوسطى في حياتنا ونعود إلى دعوة: عودوا إلى القدماء".[9]

ب) **في دراسات العصور الحديثة:**

لئن كانت صورة محمد في العصور الوسطى قائمة أساسا على التصغير وممارسة لاهوت من الإذلال بحق نبي الإسلام، فإن هذه الصورة قد شهدت في العصور الحديثة مستويات متفاوتة سايرت الانفجار العقلاني الذي لاح في أفق أوروبا خلال القرن التاسع عشر، حيث انبرى بعض المستشرقين من كتاب السيرة للدفاع عن الإسلام والطعن في المجادلات التي قللت من شأن هذا الدين، وحاولوا إبانة قيمة التقوى الإسلامية وصدقية الرسالة المحمدية، من مثل المستشرق إدوارد جيقوك الذي أسهمت مؤلفاته في الارتقاء بالدين الإسلامي إلى مراتب عليا في التاريخ الإنساني. فضلا عن كتاب "الأبطال" الذي هو في الأصل محاضرة ألقاها كارليل سنة 1940 دافع فيها عن نبي الإسلام محمد بطريقة مدهشة لا تخلو من المدح والمبالغة والغلوّ. غير أن هذا التيار الذي انبرى يمدح الإسلام، ويعرض مزايا رسوله المحمودة لم يكن في الحقيقة مؤسّسا على قناعة واقتناع بجدوى هذا الدين والتعاطف مع نبيّه، وإنما كان محكوما بخلفية إيديولوجية حكمت آراء الكتّاب العقلانيين الذين مجّدوا محمدا لا لذاته، وإنما اتخذوه مطية ووعاء أفرغوا فيه أفكارهم حول الحياة الدينية والسياسية المحمّلة بكراهية شديدة للكنيسة وتشنيع بالمسيح. وقد شهدت الدراسات الاستشراقية في مجال السيرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر اتجاهات متعددة ومتنوّعة، يمكن حصرها في ثلاثة:

- **الاتجاه الأول:** دشنّه ويليام مولير، نجد صداه في كتابات المستشرق البلجيكي هونري لامانس، وهو اتجاه يحمل آثار القرون الوسطى وطابعها النفعي الاستعماري القائم على النظرة الدونية للحضارات الأخرى والازدراء من أعلامها، وإن كان هذا الاتجاه يختلف عمّا ساد في القرون الوسطى بما يتضمّنه من درجات البحث والتدقيق في العودة إلى مصادر التراث الإسلامي، كانت أعمق ممّا كانت عليه كتابات القرون الوسطى وإن اتفقت كلها في منحى التقليل من قيمة الإسلام ومن قيمة محمد رسول الإسلام ما تسبّب في الحد من النزعة العلمية التي يدّعيها أعلام هذا الاتجاه، حيث لم تكن آراء هنري لامانس في الإسلام وفي نبي الإسلام محل تقدير، إذ أعده معاصروه من غير المتأثرين به أكثر المستشرقين تحاملا على العروبة والإسلام، بينما اقتصرت دراسات غروبناوم ومرغليوت على الاكتفاء بالتأليف المتداول في توصيف العرب ورموز الإسلام.

[9]- سلامة موسى؛ **ماهي النهضة**؛ مكتب المعرف؛ بيروت؛ طبعة 2؛ 1974؛ ص 11

- الاتجاه الثاني: ومن أعلامه ريتشارد بيل وجولد تسهير ومارقليود، وقد كان لهذا الاتجاه الفضل الكبير في إضاءة ما تعتّم من تاريخ الإسلام الأول، كما أسهمت كتابات هؤلاء المهتمين بتاريخ الإسلام في الاطلاع على دائرة من المعارف شاسعة تتعلّق بالحياة الجاهلية لما اعتمدوه من موضوعية في المنهج ومعالجة الأخبار والمرويات، فاستحالت صورة محمد مع هذا الاتجاه حاملة لملامح الزعيم الديني والسياسي الذي كان قادرا بما يمتلكه من نفوذ خارق على جمع شتات القبائل المتناثرة والمتناحرة فيما بينها، ليؤسس دولة مركزية سرعان ما تتحول إلى إمبراطورية مفتوحة على التاريخ والجغرافيا ومشاركة في صناعة التاريخ الإنساني. وإن ما تتسم به كتابات أعلام هذا الاتجاه خلوّها من منهج المقارنة أو المقارنة بين الإسلام والمسيحية أو بين الإسلام واليهودية، وإنما حاول أعلامها إبراز صفات النبي محمد بمعزل عن أسلوب المقارنة بينه وبين عيسى أو أنبياء العهد القديم، فهل يمكن أن نعدّ هذا التوجه قد سقط في خطأ فادح، لاعتقاده بإمكانية إدراك الموضوعية في قراءة حياة محمد وتاريخ الإسلام بالاعتماد على أصول العقيدة الإسلامية دونما نظر في التأثيرات المسيحية واليهودية وحتى الجاهلية ومدى تعالق هذه المؤثرات مع الدين الإسلامي؟

- الاتجاه الثالث: اهتمّ بمعالجة جملة الأخطاء المقصودة وغير المقصودة التي وقع فيها كتّاب السيرة السابقين زمنيا، ولعلّ من أبرز أعلام هذا الاتجاه المستشرق البريطاني مونتيغومري وات الذي مثل توجها جديدا دافع من خلاله عن النبي محمد بحماسة أحيانا تفوق حماسة المسلمين، وقد اعتمد في اشتغاله بمادة السيرة المحمدية على مناهج علمية حديثة.

لقد كانت الأفكار الآتية من الغرب المتخصصة في مجال السيرة متفاوتة بين المعرفي والعلمي، وبين النزعة التفسيرية المتأصلة داخل أنظمة الصراع الديني، حيث كان المثقفون العرب يتوزعون أيضا في اتجاهين بين من يرى الاستشراق تهديدا دينيا وحضاريا وبين آخر يرى فيه مرجعا للإثراء. إذ يرى إلياس أبو شبكة أنّ الحروب الصليبية قادت إلى انتفاع الغرب عموما وفرنسا خصوصا من حضارة العرب، حيث يقول:" أنكر الدكتور برناردلوس في كتاب صدر عن تاريخ اهتمام الانقليز بالعلوم العربية على جمهرة العلماء اعتقادهم مدة طويلة من الزمن، أن أول اتصال هام بين الثقافة العربية وثقافة الفرنجة كان نتيجة الحروب الصليبية"[10].

أما المستشرق رفائيل بتاي، فكان يستخدم المعلومة التاريخية استعمالا هامشيا لتدعيم وجهة نظر أنثروبولوجية أو أخرى متعلقة بالعادات والتقاليد بخلاف منهج محمد عابد الجابري الذي كان يقلب المعادلة كليا، ويبحث في حيثيات التبسيط.

[10]- إلياس أبو شبكة؛ **روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة**؛ دار الكشوف؛ بيروت؛ 1952؛ ص ص 18-19

3- الاستشــراق ونبــوّة مـحـمّـد:

أ) مصدر القرآن: الاستشراق

اتجهت جهود بعض الدراسات إلى محاولة إعادة النظر في الاعتقاد في صحة القرآن وفي مصدره الغيبي، لبيان أن القرآن ليس وحيا من عند الله، وإنما هو من تأليف محمد، وبالتالي إبطال القول بأنه وحي سماوي، يقول جورج سيل في مقدمة ترجمته الإنجليزية لمعاني القرآن التي صدرت سنة 1736 م "أما أنّ محمد كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فأمر لا يقبل الجدل"[11]. وقد لاقت هذه المقدمة رواجا كبيرا، واستطاعت أن تثبت زمنا طويلا كمصدر علمي موثوق به لدى المستشرقين من حيث اشتمالها على عرض شامل للدين الإسلامي، وقد مثل جورج سيل بهذا التوجه منطلقا لكل من **رينان** الذي اعتبر الرسالة المحمدية امتدادا طبيعيا للحركة الدينية التي كانت سائدة في عصر محمد دون أن تشمل هذه الرسالة على أي جديد.[12]

ويذهب **ريتشاردبيل** مؤلف كتاب "مقدمة القرآن" أن النبي محمد قد اعتمد في كتابته للقرآن على الكتاب المقدس، وخاصة على العهد القديم وتحديدا في قسم القصص؛ فبعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية، ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها الرسول محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمدّه من مصادر يهودية ومسيحية، وقد ساعدته إقامته في المدينة على التعرف على ما في العهد القديم من خلال الاتصال بالجاليات اليهودية التي كانت بالمدينة وعن طريقها حصل على قسط كبير من المعرفة بكتب **موسى.**[13]

وبالتالي اتفقت بعض الدراسات الاستشراقية في إسناد النص القرآني إلى إبداع إنساني لا سماوي؛ فأنكروا عنه صفة الوحي وصدقية النبوة، واعتبروا أن القرآن إنما هو من تأليف محمد نقلا عما سمعه من أتباع اليهودية وعما جمعه من معلومات كانت شائعة عن حياة المسيح، فاستحال الدين الذي نادى به تلوينا جديدا للديانتين اليهودية والمسيحية" ليس لدينا أي سبب يحملنا على الاعتقاد بأن هناك آية في القرآن لم ترد عن محمد".[14]

ب) مصدر السنّـة النبويـة:

لقد سعى المستشرقون إلى إعادة النظر في النص القرآني من حيث المصدر ومن جهة المحتوى والروافد التي منها استسقى النص معانيه وإيقاعاته، شأوهم في ذلك شأو سعيهم إلى إعادة النظر في سيرة الرسول محمد.

[11]- للتوسع انظر إبراهيم اللبان؛ **المستشرقون والاسلام**؛ ملحق بمجلة الأزهر؛ أفريل؛ 1970

[12]- انظر محمد عبد الله دراز؛ **مدخل إلى القرآن الكريم**؛ دار القلم؛ الكويت؛ 1974؛ ص 130

[13]- للتوسع انظر إبراهيم اللبان؛ المستشرقون والاسلام؛ (سبق ذكره)؛ ص ص 44- 45

[14]- Roudi Bart ; Der Couran ; Uebersetzung ; 1980; P. 5

ويعدّ المستشرق **جولد تسهير** من أعمق العارفين بمادة السيرة النبوية، وقد أثنى المستشرق **بفانموالر** على جهود **جولد تسهير** في مجال معالجة نصوص أحاديث السيرة المحمدية بقوله: "لقد كان **جولد تسهير** أعمق العارفين بعلم الحديث النبوي، وقد تناول في القسم الثاني من كتابه (دراسات محمدية) موضوع تطور الحديث تناولا عميقا وقد قادته المعايشة العميقة لمادة الحديث إلى الشكّ في الحديث ولم يعد يثق فيه".[15]

فالأحاديث النبوية التي تواضع المسلمون على الاستشهاد بها واعتمادها مصدرا أساسا من مصادر التشريع ترد مباشرة بعد القرآن، يعتبرها **جولد تسهير** أحاديث مبتدعة جاءت نتاجا للصراع الذي احتدّ بين اتجاهات مختلفة في الإسلام راحت تبحث كل واحدة منها لإثبات شرعيتها إلى ابتداع، واختراق أحادث نبوية تجري على لسانها ما يعبّر عن شعاراتها وشرعيتها.

كما لم تخرج شخصية محمد في نصوص المستشرقين عن مجال المقارنة والمقابلة بينها وبين صورة المسيح: فلما كان محمد مزواجا وشهوانيا، كان المسيح العفيف الذي لم يتزوج، ومحمد محارب وسياسي. أما أليسوع، فهو مسالم يدعو إلى محبة الأعداء.[16]

كما نقف في محاولات المستشرقين المحدثين لكتابة سيرة النبي محمد على مناطق أخرى من حيث الأسلوب، ومن جهة الوقائع والأحداث اختار أصحابها البقاء على الحياد في ما تعلق بالمواضيع المتصلة بعلاقة الإسلام بالمسيح وباليهود أو ما اتصل بالحكم على الطبيعة الإلهية لرسالة محمد، وقد مثل المستشرق البريطاني **"مونتيغومري واط"** مثالا بارزا لهذا التوجه أسسه باعتماده على المصادر التراثية التي رتّبها وصنّفها بحسب صلتها بالوقائع التاريخية، متخذا من القرآن مصدرا رئيسا لكتابة السيرة، ثم في مرتبة لاحقة اعتمد على مصدر سيرة **ابن هشام** وتاريخ **الطبري** ومغازي **الواقدي** وطبقات **ابن سعد**، ما مكّن القارئ من الوقوف على معالجة رصينة لأحداث التاريخ خالية من الأحكام المعيارية للاستشراق القديم، فهو يتعامل باحتراز وحذر شديدين مع الأخبار المنقولة عن أسلافه من المستشرقين من أهمهم **هونري لامانس** و**جولد تسهير** و**فينالس**، وهم الذين بالغوا في الشك في مصدر القرآن ومقولة الوحي بما هم قد حاولوا إدراك حقائق التاريخ التي تستند إلى الوقائع لا إلى المواقف المسبقة أو الأفكار المسقطة على الأحداث إسقاطا منهجيا إيديولوجيا.

فـ **"واط"** من جهة تقنية البحث يعتمد على أسلوب نقدي ميزته المقارنة وسمته عرض الأحداث والوقائع دونما تصريح برؤيته، وفي ظل غياب المعطى التاريخي بشكل كاف، نجده يلجأ إلى إعادة تركيب الأحداث وبالتالي إعادة ترتيبها، ما يكسب منهجه طابع الموضوعية والعلمية. ولئن حقق هذا المنهج بعض النتائج المحمودة في الضمير الإسلامي إلا أن **"واط"** لم يخرج كليّا عن دائرة ما توصّل إليه الاستشراق من مقولات قد

---

[15]- مصطفى السباعي؛ **السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي**؛ بيروت؛ 1972؛ ص ص 190-191

[16]- للتوسع؛ انظر؛ هشام جعيط؛ **أوروبا والاسلام**؛ ص 63

تبدو أحيانا إساءة موجهة لنبي الإسلام من وجهة إسلامية، فإنه ظلّ محايدا ومحافظا على هذا الموقف كلما اقتضى الأمر ذلك وبخاصة في ما تعلق بطبيعة القرآن، هل هو كلام الله أو هو من تأليف محمد؟ حيث سكت عن البحث في هذه المسألة، واكتفى في كل مرة يستشهد فيها بالقرآن إلى اعتماد صياغة " أقول بكل بساطة، يقول القرآن"،[17] وهو بهذه الطريقة يعبّر عن رغبته في الالتزام بعدم الخوض في ما يتعارض مع معتقدات الإسلام الأساسية، أو أن يمسّ الشعور الإيماني للمسلمين.[18]

يمكن لنا أن نتدبّر منهج واط في معالجته لنصوص السيرة النبوية من خلال النظر في الروافد الفكرية والمشارب العلمية التي منها استقى أفكاره وإليها كانت الرجعى في التفكير والبحث والنظر وإعادة النظر؛ ومن أهمها كتابات المستشرق السكوتلندي **توماس كارليل** (1795-1881) الذي ذهب إلى القول بأن التاريخ بصفة عامة، لا يعدو أن يكون إلا سيرة ذاتية لعظماء الرجال بما هم السبيل المانح للبشرية الخلاص والوعي الكامل، وصورة هذا البطل حسب **كارليل**، إنّما هي قوة من قوى الطبيعة وقد خصص في كتابه (الأبطال وعباده الأبطال – الصادر سنة 1840) فصلا كاملا للحديث عن محمد وفيه نفى عنه صفة الخداع والكذب، مؤكدا على صدقه وأمانته وصدقية نبوّته، وبالإضافة إلى **توماس كارليل**، يمكن أن نذكر أيضا المستشرق **"ريتشارد بيل"**، وهو من رجال الدين ترجم القرآن فيما بين 1937-1940. كما ألّف عديد المباحث التي اهتم فيها بمعالجة النص القرآني وحياة محمد على نحو (أسلوب القرآن- المتشابه في القرآن – رؤى محمد). وقد تعامل المستشرق **واط** مع هذه المصادر لا من جهة النقص والتعديل، وإنما من جهة التأكيد والمسايرة، وإن كان قد حافظ على جانب كبير من الحياد والعلمية.

خـــاتمـــة:

هكذا اتخذ موضوع السيرة المحمدية مسالك مختلفة بحسب تنوع المنطلقات والمقاصد، فتباينت صورة محمد بين خطابات القرون الوسطى وخطابات العصور الحديثة التي تنوعت هي الأخرى من جهة النظر إلى شخصية محمد سياسيا ودينيا واجتماعيا، كما أن متابعة هذا التحول أو التبدل الذي حفّ بصورة نبي الإسلام محمد تمنحنا مجموعة من الاستنتاجات نورد أهمها على سبيل الثراء:

1) إنّ اهتمام العرب المسلمين بمادة السيرة مردّه أساسا إلى رغبتهم الشديدة في تنقية صورة النبي محمد من الانتقادات اللاذعة التي وصلت حدّ السخرية والتهكّم، والواردة في مؤلفات المستشرقين سواء في العصور الوسطى أو في الدراسات الحديثة.

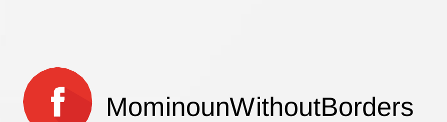
---

[17]- منتيغومري واط، **محمد في المدينة**، ص 5

[18]- للتوسع انظر المرجع نفسه، ص 6

2) لقد أفرزت الدراسات الاستشراقية قديما وحديثا صورتين لمحمد النبيّ؛ صورة أولى نفت عنه صفة النبوة كما نفت عن القرآن صفة الوحي، واعتبرت النص القرآني إنما هو تلوين للكتاب المقدس بعهديه القديم والحديث، واستهانوا بالنص حين حمّلوه مجموعة الأخطاء والتناقضات وأحالوه لمحمد في التأليف، كما أنزلوا نبيّ الإسلام منزلة زير نساء دفعته شهوانيته إلى أن يتزوج تسع نساء دون أن نعد خليلاته، بالإضافة إلى تزوجه بطفلة في العاشرة من عمرها وإجباره لابنه بالتبني على تطليق زوجته التي رآها فأعجب بها، فضلا عن قولهم بأنه على المستوى السياسي لم يكن يحترم تعهداته والمواثيق المبرمة مع أعدائه. أما الصورة الثانية، فتبدت أكثر علمية وأعمق من جهة التأريخ لسيرة محمد نبي الإسلام، ومن جهة الردّ على كل الانتقادات الموجهة له.

والقارئ المسلم مطالب في هذا المجال، أن يتعامل مع كتابات المستشرقين بأسلوب علمي لا يغتر بالمدح ولا يستهجن الذمّ أو الانتقاد، وإنما يمارس كتابة سيرة لا تختلق التبريرات ولا تسقط المعطيات، بل تضع شخص الرسول في سياق تاريخي علمي يحافظ على هامش كبير من دلالات اللغة الحيادية.







الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com